OPEN ACCESS
Received: 18 -04 -2026
Accepted: 27- 06-2026

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

The Production of *Adab al-Akhbar* in al-Andalus from the Fifth to the Ninth Hijri Century: Between Earlier Conventions and New Transformations

Dr. Mohammed Al-Nasser Kahhouli*
m.kahouli@qu.edu.sa

Abstract:

This study investigates the production and transformation of *Adab al-Akhbar* in al-Andalus from the fifth to the end of the ninth Hijri century, approaching it as a form of cultural production shaped by the interaction between inherited literary conventions and changing historical realities. It argues that Andalusian literary *akhbar* were not merely an extension of Eastern Arabic models but developed distinctive modes of production in response to political, social, and cultural transformations within al-Andalus. Drawing on modern theories of literary production, particularly reception aesthetics and the concept of the horizon of expectations, the study employs a historical approach to trace the factors governing the formation of this literary practice. It examines the roles of codifiers, compilers, and translators as epistemic authorities, together with the influence of *akhbari* writers, cultural institutions, reception mechanisms, and Andalusian literary activity. The findings show that these interacting forces reshaped the themes, structures, and functions of literary *akhbar*, transforming them from a practice centered primarily on transmitting reports into a creative literary form responsive to contemporary conditions while retaining its roots in inherited tradition. The study ultimately highlights the Andalusians' conscious endeavor to develop a literature expressive of their distinctive cultural identity.

Keywords: *Adab al-Akhbar*, Andalusian Literature, Production of Literary *Akhbar*, Reception Aesthetics.

* Professor of Rhetoric and Narrative, Department of Arabic Language and Literature, College of Languages and Humanities, Qassim University, Saudi Arabia.

Cite this article as: Kahhouli, M. A. (2026). The Production of *Adab al-Akhbar* in al-Andalus from the Fifth to the Ninth Hijri Century: Between Earlier Conventions and New Transformations, *Arts for Linguistic & Literary Studies*, *8*(3): 248 - 261 https://doi.org/10.53286/dq9r0f98

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 2026/04/18م
تاريخ القبول: 2026/06/27م

صناعة أدب الأخبار في الأندلس من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريّ بين الإملاءات القديمة والتحولات الجديدة

د. محمّد الناصر كحّولي*
m.kahouli@qu.edu.sa

الملخّص:

يتناول هذا البحث صناعة أدب الأخبار في الأندلس خلال المدة الممتدة من القرن الخامس إلى نهاية القرن التاسع الهجري، بوصفها عملية إنتاج ثقافي خضعت لتفاعل معقّد بين سلطة الموروث ومتغيرات الواقع التاريخي والثقافي. وينطلق البحث من فرضية مفادها أن الخبر الأدبي الأندلسي لم يكن امتدادًا آليًا للنموذج المشرقي، بل أعاد تشكيل آليات إنتاجه استجابةً لإملاءات قديمة فرضتها المرجعيات الموروثة، وتحولات جديدة أملتها خصوصية البيئة الأندلسية وتبدلاتها السياسية والاجتماعية والثقافية. ويستند الإطار النظري إلى تصورات صناعة الأدب كما طُرحت في الدراسات الحديثة، ولا سيما ما يتعلق بجمالية التلقي وأفق الانتظار، مع الإفادة من الرؤى التي تناولت العلاقة بين الإنتاج الأدبي والسلطات المعرفية والثقافية. ويعتمد البحث المنهج التاريخي لتتبع مظاهر تشكل أدب الأخبار وتحولاته، من خلال تحليل العوامل المؤثرة في بنائه، والكشف عن أثر المقنن والمدون والمترجم بوصفها سلطات معرفية أسهمت في توجيه عملية الإنتاج، إلى جانب تأثير السياق المحايث المتمثل في شخصية الأخباري، وبنية المؤسسة الثقافية، وآليات التلقي، والحراك الأدبي في الأندلس. كما يناقش البحث النتائج التي ترتبت على هذا التفاعل، والتي تمثلت في إعادة صياغة الخبر الأدبي على مستوى موضوعاته وبنائه ووظائفه، بما يعكس انتقاله من مجرد نقل الرواية إلى ممارسة إبداعية تستجيب لشروط العصر مع احتفاظها بجذورها التراثية. ومن أبرز النتائج التي توصل إليها هذا البحث حرص أهل الأندلس على إنتاج أدب يمثّلهم ويعبّر عن شخصيتهم.

الكلمات المفتاحيّة: أدب الأخبار، الأدب الأندلسي، صناعة الخبر الأدبي، جماليات التلقي.

* أستاذ البلاغة والسرد، قسم اللغة العربيّة وآدابها، كلّيّة اللغات والعلوم الإنسانيّة، جامعة القصيم، المملكة العربيّة السعوديّة.

للاقتباس: كحّولي، م. ا. (2026). صناعة أدب الأخبار في الأندلس من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريّ بين الإملاءات القديمة والتحولات الجديدة، *الآداب للدراسات اللغوية والأدبية*، *8*(3): 248- 261 https://doi.org/10.53286/dq9r0f98

© نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة Attribution 4.0 International (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أُجريت عليه.

مقدّمة:

إنّ صناعة الأدب تخضع لمجموعة من الشروط منها ما يتعلّق بمواضعات سابقة ومنها ما يتعلّق بجمالية التلقّي وأفق الانتظار (Jauss, 1978)، ومنها ما يتعلّق بالحالة الراهنة زمن الكتابة. وقد تباينت تصوّرات الباحثين في بناء نظريّة تؤسّس لصناعة الأدب، فاقترح بيار ماشيري نظريّة في صناعة الأدب (Macherey, 2014)، وربط نيكول جونيير صناعة الأدب بالاستعارة والمفهوم والحقل الإشكاليّ (Gueunier, 1978, p 3-18). ورغم محاولات النمذجة تلك فإنّ ضوابط صناعة الأدب ظلّت متحوّلة ومتغيّرة من عصر إلى آخر ومن أديب إلى آخر.

ولعلّ ذلك ينطبق على صناعة أدب الأخبار وإنتاجه في الأندلس من القرن الخامس إلى القرن التاسع للهجرة، فقد شهد أدب الأخبار تحوّلا كبيرا في هذه المرحلة التاريخيّة بسبب التحوّل التاريخيّ الذي شهده العرب المسلمون عموما منذ نهاية القرن الرابع للهجرة، حيث بدأ مسار الازدهار في المشرق العربيّ يخبو تدريجيّا، فوجد الأخباريّون في الأندلس - ويمكن أن نسمّيهم بـ"الأخباريّين الجدد"- أنفسهم في وضع مختلف تماما عن نظرائهم قبل هذه المرحلة، خصوصا في المشرق العربيّ، أولئك الذين يمكن أن نسمّيهم بـ"الأخباريّين القدامى".

وهذا الوضع مختلف بالأساس من الناحية الثقافيّة، ذلك أنّ الأخباريّين القدامى كانوا قد عايشوا مرحلة التشكّل والبناء، وواكبوا الحركات الثلاث في تاريخ الثقافة العربيّة الإسلاميّة التي امتدّت إلى منتصف القرن الثالث الهجريّ، وهي حركات "التقنين" و"التدوين" و"الترجمة". وكانوا في أقصى حالاتهم حديثي عهد بهذه الحركات. فكانوا في منأى عن الإكراهات الناتجة عن هذه الحركات، ذلك أنّ "المقنّن" و"المدوّن" و"المترجم" لم يتحوّل بعد إلى سلطة تتحكّم تحكّما مباشرا في المنتج الثقافيّ العربيّ، وتحديدا أدب الأخبار.

وانطلاقا من القرن الخامس الهجريّ يمكن القول إنّ "المقنّن" و"المدوّن" و"المترجَم" أصبح يمثّل موروثا ذا وقع ثقيل وتأثير بالغ في الإنتاج الثقافيّ، فذلك الموروث بمختلف مكوّناته وروافده قد وسم العقل العربيّ بميسم مخصوص سيتحكّم بشكل أو بآخر في عمليّة الإنتاج الثقافيّ عموما وأدب الأخبار على وجه التحديد. وقد صار ذلك الموروث هو "الإسناد" الذي تقاس إليه كلّ عمليّة إنتاج.

ثم وجد الأخباريّون في الأندلس أنفسهم في مواجهة إكراهات متأتّية من الواقع المحايث بكلّ أبعاده، منها ما اتّصل بالأخباريّ ذاته في مستوى بنيته النفسيّة وبنيته الذهنيّة، ومنها ما اتّصل بسياق التقبّل نظرا إلى منزلة المتقبّل ودوره في عمليّة الإنتاج وفاعليّة المؤسّسة النقديّة وقدرتها على توجيه هذه العمليّة، ومنها ما اتّصل بالسياق المعرفيّ وتمثّل في مميّزات الحركة الأدبيّة المعاصرة للمبدع. وهذا ما جعل أدب الأخبار في الأندلس في المرحلة التي تعنينا في بحثنا بين حجريْ رحى طاحنة، سلطة آتية من الماضي وسلطة محايثة ناشئة من واقع الإخباريّ، لها سلطة عليه بوجوه مختلفة ومظاهر جديدة.

وسيدرس هذا البحث مظاهر تلك التحدّيات التي واجهها أدب الأخبار في الأندلس من بداية القرن الخامس إلى نهاية القرن التاسع للهجرة.

منهج البحث: يعتمد البحث المنهج التاريخي

الدراسات السابقة: لم نعثر فيما تيسّر لنا الاطّلاع عليه على دراسة سابقة تعرضّت لمسألة صناعة أدب الأخبار في الأندلس من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريّ بين الإملاءات القديمة والتحولات الجديدة، ولكن وجدنا دراسات كثيرة حول الأدب الأندلسيّ، من قبيل، الأدب العربيّ في الأندلس (عتيق، 1976) والأدب الأندلسيّ موضوعاته وفنونه (الشكعة، 1983) وملامح التجديد في النثر الأندلسيّ خلال القرن الخامس الهجريّ (السيوفي، 1985) ومدخل إلى الأدب الأندلسيّ

(طويل، 1991) وظاهرة الانتماء في الأدب الأندلسيّ (بن ثقفان، 1994) والسرد في الأفق الأندلسيّ (ريدان، 2000) وفي الأدب الأندلسيّ (الداية، 2000).

وبرغم أهمّيّة ما ورد في هذه الدراسات فإنّها لم تقف عند العوامل المؤثّرة في صناعة أدب الأخبار. ولعلّ هذا ما يجعل هذا البحث مختلفا خصوصا في مستوى تبئيره للإملاءات القديمة والتحوّلات الجديدة، وكيفيّة تأثيرها في صناعة الخبر الأدبيّ في الأندلس.

خطّة البحث: يتكوّن البحث من مقدّمة وثلاثة مباحث وخاتمة ثم قائمة بالمراجع، على النحو الآتي:

- المقدّمة:
- المبحث الأوّل: أدب الأخبار في الأندلس من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريّ والإملاءات القديمة.
- المبحث الثاني: أدب الأخبار في الأندلس من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريّ والتحولات الجديدة.
- المبحث الثالث: النتائج المترتبة على الإملاءات القديمة والتحولات الجديدة.
- النتائج.

ففيم تتمثّل الإملاءات القديمة؟ وكيف أسهمت في تشكيل أدب الأخبار في الأندلس؟

1. أدب الأخبار في الأندلس من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريّ والإملاءات القديمة:

واجه الخبر الأدبيّ في الأندلس من القرن الخامس إلى القرن التاسع مجموعة كبيرة من التحدّيات الوافدة من الماضي سواء تعلّقت بما ورد من المشرق العربيّ أو ما تعلّق بالموروث الأندلسيّ. ويمكن حصر تلك الصعوبات والتحدّيات فيما يلي:

1.1. استواء أدب الأخبار:

كان الخبر الأدبيّ قد استوى في القرن الرابع الهجريّ واستقرّ، وظهر ذلك في مستويَيْن على الأقلّ: اتّصل المستوى الأوّل بالسند، وهو سند تأثر في صناعته بشكل أو بآخر بالسند في علم الحديث، فتعدّدت حلقاته وناسبت عبارات الأداء فيه مراتب التحمّل، وهيمن عليه المنزع الواقعيّ التاريخيّ. ثم تسرّبت إليه صيغ تنزع إلى الاستقلال عن المرجع التاريخيّ من قبيل "يحكى أنّ" و"قيل" و"رُوي".

وسيشكّل هذا التداخل القائم بين المرجعيّ والفنّيّ في مستوى السند شكلا من أشكال التحدّي الأكبر الذي سيواجهه الأخباريّون الجدد في الأندلس، فهل عليهم التقيّد بالواقعيّ المرجعيّ أم كسر هذا القيد والجنوح إلى الإيهام بالواقع من خلال تخييل المرجعيّ أو القطع مع الواقع من خلال التخيّل، فيكون عملهم لونا من ألوان الإنشاء والإبداع الفنّيّ؟

وتعلّق المستوى الثاني بالمتن، وقد تميّز بعدد من الخصائص أبرزها على الإطلاق خاصيّتان: تتّصل الأولى بالنمط، فقد تراوح المتن في نمطه بين المرجعيّ التاريخيّ، والإنشائيّ التخييليّ. يقول محمّد القاضي: "إنّ كتابات الجاحظ مثّلت مرحلة من مراحل الخبر اتّسمت بالنضج، لأنّه استطاع أن يقف بالخبر موقفا وسطا، فلم يقبل أن يشطّ به الخيال، ولم يصفده بأغلال الوقائع المعيشة، وإنّما ترك له إمكانيّة مشاكلة الواقع" (القاضي، 1998، ص641).

وتتّصل الثانية بالشموليّة، فمتن الخبر الأدبيّ، قبل القرن الخامس الهجريّ شمل مختلف المواضيع حول الإنسان والحياة والكون. فعلى سبيل المثال صنّف ابن الداية (ت340هـ) في موضوع "المكافأة وحسن العقبى"، وصنّف التنوخي (327هـ-384هـ) في موضوع "الفرج بعد الشدّة"، وانتشرت الأخبار الأدبيّة المتّصلة بالفضائل والرذائل والقيم الإنسانيّة كالوفاء والخيانة والأمانة والغدر والصدق والكذب والشجاعة والجبن والصداقة والعداوة والعدالة والظلم في مختلف كتب الأخبار، ومن أبرزها "الأخبار الموفقيّات" للزبير بن بكّار (172هـ-256هـ) و"العقد الفريد" لابن عبد ربّه (246هـ-328 هـ) و"الأغاني" لأبي

الفرج الأصبهاني (284هـ ـ 356هـ) و"المستجاد من فعلات الأجواد" و"نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة" للقاضي التّنوخي (327هـ- 384 هـ).

وبالنسبة إلى الشخصيّات راجت أخبار عديدة حول سماتهم الخُلقيّة المحمودة والمذمومة كالذّكاء والحمق والحلم والغضب والكرم والبخل والتحيّل والتسوّل والتطفيل والطمع، وسماتهم الخَلقيّة كالأبرص والأعرج والأعمى والأحول، وسماتهم الفيزيولوجيّة كالنساء والجواري والقيان والغلمان والخصيان، ومراتبهم الاجتماعيّة كالخلفاء والوزراء والأمراء والولاة والقضاة والأطبّاء والفقهاء والمعلّمين والكتّاب والحجّاب والأعراب والمغنّين والخلعاء والمجّان والعبيد والخدّام. وقد امتدّت هذه الأخبار في الزمان واتّسعت في المكان، فنجد أخبار الأمم السابقة وحتى أخبار آدم وما قبل آدم ومختلف الكائنات التي عمّرت الأرض، ومن أبرز الأمثلة على ذلك نذكر "البرصان والعرجان والعميان والحولان" و"البخلاء" للجاحظ (163هـ ـ 255هـ) و"بلاغات النساء" لابن طيفور (204هـ ـ 280) و"الموشّى في الظرف والظرفاء" للوشّاء (ت 325هـ).

لقد أتى الأخباريّون القدامى على كلّ شيء، فغدا إرثهم ثقيلا على الأخباريّين الجدد، وقيدا ضاغطا جعلهم أمام خيارين لا ثالث لهما: إمّا أن يترصّدوا الأخبار الحادثة ويقتصروا عليها دون سواها، فيحدثوا نوعا من التراكم النوعيّ في المنتج المعرفيّ، وتحديدا في مستوى إنتاج الخبر الأدبيّ، وإمّا أن يفاوضوا الموروث في أربعة مستويات: نقل الموروث مع إعادة تبويبه داخل الكتاب الواحد، أو نقله مع إعادة تصنيفه حسب أغراضه في كتب مستقلّة، أو نقله مع تجديد صياغته، أو نقله مع تحقيقه. وفي هذا الخيار الأخير تبقى صناعة الخبر الأدبيّ عند الأخباريّين الجدد في حدود عمليّة إعادة الإنتاج. ويُذكر أنّ ابن أبي حجلة التلمسانيّ (725هـ ـ 776هـ) كان مدركا لهذا المأزق الإبداعيّ، إلاّ أنّه أظهر من التحدّي ما حمله على التطاول على الأخباريّين القدامى والتخفيف من هالتهم عند المتقبّل وتحجيم سلطانهم عليه والاعتداد بنفسه والإعلاء من شأن الأخباريّين الجدد إذ يقول: "فإن قلتَ: الفضل للمتقدّم وهل غادر الشعراء من متردّم؟ قلتُ: نعم في الخمر معنى ليس في العنب. وأحسن ما في الطاووس الذنب. فدع كلّ صوت بعد صوتي. فإنّني أنا الصائح المحكيّ والآخر الصدى. فكم ترك الأوّل للآخر؟ ولا اعتبار بقول الشاعر [الكامل]، (ابن أبي حجلة، 1980، ص 4-5):

نَقِّلْ فُؤادَك حيثُ شِئتَ مِن الهَوى ... ما الحبُّ إلاّ لِلحبيبِ الأَوّلِ

كَمْ مَنزِلٍ فِي الأَرضِ يَألَفُه الفَتى ... وحَنِينُه أبَدا لِأوّلِ مَنزِلِ

فقد سقط في يديه وقيل في الردّ عليه: [الكامل]

افخَرْ بِآخِرِ مَن كَلِفتَ بِحبِّه ... لا خَيرَ في حبّ الحَبيبِ الأَوّلِ

أَتَشُكّ في أنّ النَّبيَ مُحمّدا ... سادَ البَرِيّةَ وهو آخِر مُرسَلِ"

2.1. نضج المؤسّسة النقديّة

كان تطوّر أدب الأخبار قبل القرن الخامس خاضعا لمؤسّسات علميّة ونقديّة متطوّرة، لها وثيق الصلة بعلم الجرح والتعديل في علم الحديث. فهي المسؤولة قبل الأخباريّ نفسه عن رسم سنن الإبداع والتحكّم في ملامح التقبّل، فالمتقبّل لا يثق إلاّ بما هو مؤشّر معرفيّا من قبل هذه المؤسّسات، والأخباريّ الذي يعدل في تحصيل العلم عن الشيوخ إلى الكتب يُتّهم بأنّه "صحفيّ". ومتى لم يتحرّ في أسانيده ولم يُلمّ بالرواة ويميّز بينهم يُتّهم بأنّه "حاطب ليل" أو "سارق"، بل قد يُرمى بـ"الوضع"، وهو أقسى وصف قدحيّ يسلّط على الأخباريّ لما فيه من طعن في كفاءته العلميّة ونزع الشرعيّة عن كلّ ما يقول ويكتب، فابن طيفور مثلا وُصف بأنّه "أسرق الناس" (الصفدي، 2000، ج 7، ص 7).

وبذلك وجد الأخباريّون الجدد في الأندلس أنفسهم أمام ضوابط وضعتها مؤسّسة نقديّة صارمة، تشدّ عليهم النفْس والنفَس، فصار حالهم أشبه بحال الشعراء في محنتهم التي تحدّث عنها ابن طباطبا (ت322هـ) في قوله: "والمِحْنَةُ على شُعَرَاءِ زَمَانِنَا فِي أشْعارهم أشَدُّ مِنْهَا على من كانَ قبلَهُمْ؛ لأنَّهم قد سُبِقوا إِلَى كلِّ مَعْنَى بَديعٍ، ولَفْظٍ فَصِيحٍ، وحيلةٍ لَطيفةٍ، وخَلابَةٍ ساحِرةٍ. فَإِن أَتَوْا بِمَا يَقْصُر عَن مَعَاني أُولَئِكَ وَلَا يُرْبِي عَلَيْهَا لم يُتَلَقَّ بالقَبُول، وَكَانَ كالمُطَّرَحِ المَمْلُولِ" (ابن طباطبا،2005، ص 15).

وبهذا تتّضح ملامح الإملاءات الوافدة من الماضي، وهي استواء التراث بعد تدوينه وامتزاجه بالثقافات الوافدة مرجعا مقيسا عليه، وتطوّر أدب الأخبار إلى حدود القرن الرابع الهجريّ، وصرامة ضوابط المؤسّسات العلميّة والنقديّة. وقد تحوّل كلّ ذلك إلى إكراهات قادمة من أعماق الماضي ومسلّطة على الأخباريّين الجدد في الأندلس، وكان عليهم اختيار منهج محدّد في التعاطي معها.

2. أدب الأخبار في الأندلس من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريّ والتحولات الجديدة

ما إن تمكّن الأخباريّ من التكيّف مع ضغوطات الماضي واستيعاب إملاءاتها وتمثّلها والتفاعل معها حتى سفر له وجه آخر مختلف من وجوه التحدّي والمواجهة، وهو وجه متأتّ من الواقع المحايث بكلّ أبعاده، فالخبر الأدبيّ نصّ محكوم بأربعة سياقات تتحكّم في صناعته وتوجّهه، وهي، السياق الذاتيّ، ويتعلّق بالبنية النفسيّة والبنية الذهنيّة للأخباريّ، والسياق التاريخيّ، فملامح الخبر الأدبيّ تتشكّل حسب الأوضاع القائمة تاريخيّا واجتماعيّا، وسياق التقبّل القائم على منزلة المتقبّل ودوره في عمليّة الإنتاج وفاعليّة المؤسّسة النقديّة وقدرتها على توجيه هذه العمليّة، والسياق المعرفيّ، ويتمثّل في مميّزات الحركة الأدبيّة المعاصرة للأخباريّ.

1.2. المؤثّرات النفسيّة

إنّ النصّ المنتَج يتلوّن بشكل أو بآخر بنفسيّة صاحبه، والكاتب مهما أجهد نفسه فإنّه لا يفلح في الحؤول دون امتزاج منتَجه بمؤثّرات ذاتيّة وإن بمقدار، وقد أكّد النقد النفسيّ الصلة العميقة بين طبيعة العمل الفنّيّ ونفسيّة صاحبه، فـ"من المكاسب التي أحرز عليها فهم الأدب بالمنظار النفسانيّ أنّه مكّن من معرفة أعمق بالآثار الأدبيّة فيما يتّصل بنشأتها في علاقتها بمبدعيها، فكلّ إبداع أدبيّ عظيم ينبع من أعمق انفعالات صاحبه النفسيّة. ويمكن للناقد، انطلاقا من الأثر، أن يطّلع على أخفى النّزاعات الباطنة في نفوس المبدعين، وأن يسبر أغوارها" (الواد، 1988، ص 14).

وقد تبيّن خضوع المبدعين في أعمالهم لأحوالهم النفسيّة، فعلي الحصري (420 هـ ـ 488 هـ) لو لم يُبتلَ بفقد بصره وغدر زوجته وموت وحيده عبد الغني وخراب موطنه القيروان على أيدي أعراب بني هلال لما كان لمراثيه الجياد أثر؟ (الحصري، 1980)، ودفع الخوفُ على التراث الأدبيّ البونسي (573 هـ ـ 651 هـ) إلى تأليف كتابه "كنز الكتّاب ومنتخب الآداب"، وأشار إلى ذلك في حديثه عن الأدب قائلا: "فلمّا رأيته كلّ يوم إلى نقصان، ومصونه يزداد مهانة مع الأحيان، بادرت للتأليف" (البونسي، 2004، ص 73).

2.2. التحوّلات التاريخيّة

برزت إلى جانب تلك المؤثّرات النفسيّة مؤثّرات أخرى مرتبطة بالتحوّلات التاريخيّة وما حملته في طيّاتها من قيود وجّهت بشكل أو بآخر صناعة أدب الأخبار. وقد ارتبطت المرحلة الممتدّة من بداية القرن الخامس إلى نهاية القرن التاسع الهجريّ بعدّة تحوّلات فارقة، من أبرزها على الإطلاق الحروب الصليبيّة وتُختزل في معركة حطّين عام 583 هـ، وهجوم التتار ويُختزل في نكبة بغداد عام 656 هـ، وسقوط الأندلس عام 897 هـ.

وكانت هذه المرحلة التاريخيّة مختلفة اختلافا تامّا عن المرحلة السابقة، فقد بدأ العرب المسلمون في الشرق الإسلاميّ يتراجعون منذ منتصف القرن الخامس الهجريّ، في حين كانوا في السابق في حالة صعود وبناء وتأسيس. وأمّا في الغرب الإسلاميّ فقد حلّ القرن الخامس الهجريّ والخلافة الأمويّة في الأندلس تحتضر، بل إنّ الأندلس تعيش ما اصطلح عليه أغلب الباحثين والمؤرّخين بـ"الفتنة المبيرة" أو "الفتنة البربريّة" (الداية، 2000، ص 34). فقد أُعيد المؤيّد آخر خلفاء بني أميّة إلى الخلافة في قرطبة سنة 400 هـ بعد خلعه سابقا، واسمه هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، وكان في مواجهات مستمرّة مع سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الذي جمع حوله البربر وتمكّن من دخول قرطبة سنة 403 هـ.

ويمكن اختزال التاريخ السياسيّ للأندلس في أبرز التحوّلات السياسيّة مع تركيزنا على كلّ ما له صلة بالحياة الأدبيّة سعيا إلى إبانة العوامل المؤثّرة في صناعة أدب الأخبار هناك: اتّصل التحوّل الأوّل بملوك الطوائف (المقّري، 1995، ج 1، ص 317)، وقد بدأ عصرهم فعليّا بخلع آخر خليفة أمويّ. وانقسمت الأندلس في عهدهم إلى دويلات متناحرة. وتميّز هؤلاء الملوك بإقبالهم على العلم والأدب ونخصّ منهم بالذكر المظفّر أحد ملوك بني الأفطس في بطليوس صاحب كتاب "المظفّري"، ويوسف المؤتمن أحد ملوك بني هود في سرقسطة وكان مشتغلا بالعلوم الرياضية وله فيها تصانيف ككتاب "الاستكمال والمناظر". وأمّا المعتمد ابن عبّاد فلم يترك في قوس الإبداع منزعا.

واتّصل التحوّل السياسيّ الثاني بالمرابطين (الملثّمين)، فقد استنجد بهم أهل الأندلس ليردّوا عنهم خطر الإفرنج، فعبر إليهم يوسف بن تاشفين سنة 483 هـ وبعد أن قضى على الخطر المسيحيّ أطاح بملوك الطوائف وانطلق في توحيد بلاد الأندلس تحت راية المرابطين.

وأمّا التحوّل السياسيّ الثالث فقد اتّصل بدولة الموحّدين، فلمّا آل الحكم إلى أبي يوسف يعقوب المنصور واصل الجهاد بنفسه ضدّ الإفرنج في الأندلس، وله معهم وقعة مشهورة هي "وقعة الأَرَك" سنة 591 هـ. وفي عهده بلغت الأندلس وتحديدا إشبيلية ذروة مجدها. وبعد وفاته قام بالأمر من بعده ابنه محمّد الناصر، وانهزم جيشه في "معركة العقاب" سنة 609هـ ضدّ الإفرنج، فكانت فاتحة النهاية للمسلمين في الأندلس. وبدأ نفوذ الموحّدين ينحسر أمام المدّ المسيحيّ إلى أن فقدوا حاضرتهم مدينة إشبيلية سنة 638 هـ ويتعلّق التحوّل الأخير بسقوط الأندلس بسقوط مدينة غرناطة عام 897 هـ.

ويتّضح أنّ هذه المرحلة التاريخيّة قد اتّسمت بسمتين بارزتين: تمثّلت أولاهما في عدم الاستقرار الداخليّ وتزايد الفتن والانقسامات وتعاقب الدول، وتمثّلت السمة الثانية في توتّر علاقات المسلمين مع الأمم الأخرى الساعية إلى التوسّع على حسابهم مستغلّة في ذلك ضعفهم وتشرذمهم، فانعدم الأمن واضطرب السلم، وهذا الواقع التاريخيّ المتحرّك والمتحوّل باستمرار أدّى إلى الحدّ من نسق تطوّر الحياة الأدبيّة وأثّر سلبا في صناعة أدب الأخبار تأثيرا ذا وجوه مختلفة أبرزها تغيّر سنن التقبّل. فكيف تجلّى ذلك؟

3.2. تحوّلات التلقّي

تميّزت العلاقة بين المبدع والمتلقّي منذ بداية القرن الخامس الهجريّ بالتوتّر، وما لبثت أن بلغت حدّ القطيعة. فظهر ما يمكن أن نسمّيه بـ"المتلقّي المستقيل"، فخمد سوق الأدب وكسدت بضاعته، وتراجع دور المؤسّسة النقديّة، إن لم نقل تلاشى برغم تزايد عدد المدارس النظاميّة إلى جانب المساجد، فأصبح الأخباريّ في حلّ من كلّ قيد، بل أصبح هو المبدع والناقد في الوقت نفسه، فقد شهد علم الحديث، على سبيل المثال، تطوّرا كبيرا في القرن الخامس الهجريّ مع الخطيب البغدادي (392هـ ـ 463هـ)، والقرن السابع الهجريّ مع ابن الصلاح (557هـ ـ 643هـ)، ولكنّ الأخباريّين لم يلتزموا بضوابط علماء الحديث في صناعة الإسناد إلّا لماما.

وفطن البونسي للوضع المتردّي الذي آلت إليه الحركة الأدبيّة، فحمّل المسؤوليّة المبدع والمتلقّي على حدّ سواء، فقال متحدّثا عن مكانة الأدب ومنزلته في زمانه: "على أنّ ميدانه في زماننا عاطل من الرّهان، ومصونه قد عاد في قبضة الامتهان، وقد أَفَلَتْ بدوره ونجومه، ودرست معالمه ورسومه، وعَريت الهمم من مطارفه، وزُهِد في اكتساب معارفه، وأبته الطّباع ومجّته الأسماع، وأوضعت عنه القلوب أيّ إيضاع وصدّت عنه النفوس صدود الجبان عن ميدان الحرب أو الخاشع الأوّاه عن نديّ الشرب، فحامله اليوم أضيع من قمر الشتاء وأهون ممّن دبّ فوق البطحاء حين حظي أهل البطالة وبلغوا البغية بغير آلة، ونالوا الدرك بغير سبب وآثروا الرّاحة على الطلب، وصارت قيمة المرء على قدر فضّته وذهبه لا على قدر معرفته وحسبه، وهان على كلّ إنسان أن يثلم قدره ويسلم له وفره" (البونسي، 3/2004:1).

وأثمر هذا المنعرج السلبيّ الذي شهده واقع التلقّي نتيجة لا تقلّ طرافتها عمّا اختزلته من ألم، فقد أصبح الأخباريّ لا يوجّه إنتاجه إلى عامّة التلقّي وإنّما يوجهّه إلى خاصّة التلقّي، فإبراهيم الحصري (ت 453 ه) لم يؤلّف كتابه "زهر الآداب وثمر الألباب" إلّا بعد أن طلب إليه ابن سليمان ذلك: "وكان السبب الذي دعاني إلى تأليفه وندبني إلى تصنيفه ما رأيته من رغبة أبي الفضل العبّاس بن سليمان ـ أطال الله مدّته وأدام نعمته ـ في الأدب وإنفاق عمره في الطلب وماله في الكتب، وأنّ اجتهاده في ذلك حمله على أن ارتحل إلى المشرق بسببها وأغمض في طلبها، باذلا في ذلك ماله مستعذبا فيه تعبه، على أن أورد من كلام بلغاء عصره وفصحاء دهره طرائف طريفة وغرائب غريبة، وسألني أن أجمع له من مختارها كتابا يكتفي به عن جملتها، وأضيف إلى ذلك من كلام المتقدّمين ما قاربه وقارنه وشابهه وماثله، فسارعت إلى مراده وأعنته على اجتهاده. وألّفت له هذا الكتاب ليستغني به عن جميع كتب الآداب" (الحصري، 2019: 35/1).

والأمر ذاته بالنسبة إلى ابن حزم (384هـ ـ 456هـ)، فقد ألّف كتابه "طوق الحمامة في الألفة والألّاف" لعبيد الله بن عبد الرحمان بن المغيرة بن أمير المؤمنين الناصر، حيث يقول: "وكلّفتني ـ أعزّك الله ـ أن أصنّف لك رسالة في صفة الحبّ ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله، على سبيل الحقيقة لا متزيدا ولا مفتنا، لكن موردا لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه حيث انتهى حفظي وسعة باعي فيما أذكره. فبدرت إلى مرغوبك، ولولا الإيجاب لما تكلّفته" (ابن حزم، 1987، ص 86).

ولم يكن تأليف الكتب استجابة لطلب من صاحب أمر خاصيّة مميّزة للأخباريّين "الجدد"، فمعظم المؤلّفات منذ عصر الجاحظ ينصّ أصحابها في مقدّماتهم على أنّهم يؤلّفونها بطلب من صاحب أمر. ولكنّ المختلف مع الأخباريّين الجدد أنّهم كانوا مدركين لما آل إليه واقع التقبّل وأنّ كتبهم لن يقرأها إلّا من طلبها وأنّ قاعدة التقبّل قد انحسرت في نخبة مخصوصة. وهذا من شأنه أن يخمد في ذواتهم جذوة الرغبة في الإبداع والحرص على ابتكار الجديد من الأخبار. ويمكن أن نعتبر ذلك من الأسباب الجوهريّة التي أدّت إلى دخول أدب الأخبار في مرحلة الجمود منذ القرن الخامس الهجريّ.

وإلى جانب تدهور واقع التقبّل واجه الأخباريّون الجدد في الأندلس نوعا مختلفا من التحوّلات تعلّق بالعلاقة العموديّة مع الأخباريّن في الشرق، وكان لذلك آثار عميقة في صناعة الخبر الأدبيّ، فما تجلّيات تلك العلاقة؟

4.2. تحوّلات الاستنقاص

إنّ الأخباريّ لا يصدر عن فراغ، وإنّما هو في علاقة تأثّر وتأثير مع المنتَج المعرفيّ في عصره وفي العصور السابقة، لا سيّما ما اتّصل بأدب الأخبار، وهو أكثر أنواع الأدب تأثّرا بالسياق المعرفيّ. فكلّما تهيّأت الظروف للأخباريّن غزر إنتاجه وتنوّعت تجاربه ومغامراته، فيكون ذلك جزءا مهمّا من المادّة الأوّليّة التي تغني أدب الأخبار وتنوّع موضوعاته وتدفعه إلى التطوّر

والازدهار، وإذا ضُيّق على الإبداع والأخباريّ تراجع بالضرورة أدب الأخبار. وقد كانت الحركة الأدبيّة في الأندلس تسير في خطّ معاكس لحركة التاريخ في وجهها السياسيّ والاجتماعيّ.

ولعلّ النتيجة التي قرّرها عبد العزيز شبيل تؤّيد ما ذهبنا إليه، حيث يقول: "نلاحظ أنّ انطلاقة الأدب الأندلسيّ ستتمّ ـ بالأحرى ـ في القرن الخامس، بما يسمح لنا بالحديث عن نثر وأدب أندلسيّين. ولعلّ من المفارقات العجيبة أنّ الأمر سيتمّ على شاكلة ما تمّ به في المشرق أيضا. فمثلما تزامن التفكّك السياسيّ والتدهور الاجتماعيّ والاقتصاديّ مع الازدهار الثقافيّ في القرن الرابع الهجري بالمشرق تزامن ازدهار الأدب الأندلسيّ وإشعاعه مع بداية تدهور الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة فيه" (شبيل، 2001، ص 461).

ويمكن القول إنّ أبرز البحوث والدراسات التاريخيّة والنقديّة (عبّاس، 1974؛ فرّوخ، 1982) التي اهتمّت بالأندلس قد أجمع أصحابها على الملامح العامّة للمسار الذي سلكته الحركة العلميّة والأدبيّة هناك، والعوامل المؤثّرة فيها، وأمّا المسائل الخلافيّة بينهم فمثّلت جوانب الثراء في هذا المبحث.

ولئن كنّا لا نختلف مع هؤلاء الباحثين في رؤيتهم للاتّجاه العامّ الذي شهدته الحركة العلميّة والأدبيّة في المغرب الإسلاميّ عموما والأندلس خصوصا فإنّنا نرى أنّهم أغفلوا عاملا جوهريّا كان بمنزلة المحرّك الأساسيّ للنهضة العلميّة والأدبيّة في هذا الإقليم من البلاد الإسلاميّة، إنّه روح المنافسة والتحدّي التي غلبت على المبدعين وهيمنت على إبداعاتهم في علاقتهم بالمشرق الإسلاميّ. وقد ولّدتها الملاحظات المختلفة التي تعرّضت لها "الشّخصيّة العلميّة والأدبيّة" في المغرب الإسلاميّ، وهي ملاحظات صادرة عن المشرق الإسلاميّ.

جاءت الملاحظة الأولى من أبي علي القالي (288هـ ـ 356هـ)، فقد أورد ابن بسّام (ت542هـ) ما يلي: "وقد حكى أبو علي البغداديّ الوافد على الأندلس في زمان بني مروان قال: لمّا وصلت القيروان وأنا أعتبر من أمرّ به من أهل الأمصار، فأجدهم درجات في الغباوة وقلّة الفهم بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد، حتى كأنّ منازلهم من الطّريق هي منازلهم من العلم محاصّة ومقايسة. فقلت: إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في أفهامهم بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم فسأحتاج إلى ترجمان بهذه الأوطان" (ابن بسّام، 1997: 15/1).

وأمّا الملاحظة لثانية الصادرة عن المشرق الإسلاميّ فتمثّلت فيما كان يذهب إليه أهل المشرق من أنّ ما ينتجه أهل المغرب الإسلاميّ من فنون الأدب هو في الأصل منتج شرقيّ رتّبه أهل المغرب الإسلاميّ على نحو مّا، ثمّ أعادوه إلى الشرق. وتجلّت هذه النظرة في موقف الصاحب ابن عبّاد (326هـ ـ 385هـ) من كتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربّه (246 هـ ـ 328هـ)، فقد أورد ياقوت الحموي (574هـ ـ 626هـ) الخبر الآتي: "وبلغني أنّ الصّاحب ابن عبّاد سمع بكتاب العقد فحرص حتى حصل عنده، فلمّا تأمّله، قال: "هذه بضاعتنا ردّت إلينا ظننت أنّ هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، وإنّما هو مشتمل على أخبار بلادنا، لا حاجة لنا فيه". (الحموي، 1993، ج 1، ص 464). وعدّ أهل الشرق كتاب "زهر الآداب وثمر الألباب" للحصري (ت 453 هـ) "البضاعة الأدبيّة الشرقيّة الثانية".

وهناك ملاحظات أخرى، ولكنّها صادرة من داخل الفضاء الجغرافيّ للغرب الإسلاميّ، وهي أقرب إلى النقد الذاتيّ واستنهاض الهمم منها إلى الملاحظات، وتمثّلت في رسالة ابن الربيب القيروانيّ (ت 420هـ) إلى ابن حزم (384هـ ـ 456هـ). وقد آثرنا إيراد جزء منها لتبيّن صورة ما نحن بصدده: "إنّي فكّرت في بلادكم إذ كانت غاية آمال الرّاغبين ونهاية أماني الطّالبين. وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم لم يتعب أحد منهم نفسا في جمع فضائل أهل بلده ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه، ولا بلّ قلما بمناقب كتّابه ووزرائه، ولا سوّد قرطاسا بمحاسن قضاته وعلمائه. ولكن همّ أحدهم أن يطلب شأو من تقدّمه من

العلماء ليحوز قصبات السّبق ويفوز بقدح ابن مقبل ويأخذ بكظم دغفل ويصير شجا في حلق أبي العميثل. فإذا أدرك بغيته واخترمته منيته دفن معه أدبه وعلمه فمات ذكره وانقطع خبره" (المقّري، 1995، ج 3، ص 156-158).

ونحا ابن بسّام (ت 542هـ) باللائمة على أهل الأندلس في تقليدهم الأعمى لأهل الشرق وتعظيمهم لكلّ ما يرد من هناك من فنون العلم والأدب وعدم اعتدادهم بأنفسهم وبخسهم لأعلامهم وكلّ ما ينتج في الأندلس: "وما زال في أفقنا هذا الأندلسيّ القصيّ إلى وقتنا هذا من فرسان الفنّيْن وأئمة النّوعيْن قوم هم ما هم، طيب مكاسر وصفاء جواهر وعذوبة موارد ومصادر، لعبوا بأطراف الكلام المشقّق لعب الدّجى بجفون المؤرّق، وحدوا بفنون السّحر المنمّق حداء الأعشى ببنات المحلّق... إلّا أنّ أهل هذا الأفق أبوا إلّا متابعة أهل الشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما وتلوا ذلك كتابا محكما. وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة مرمى القصيّة ومناخ الرذيّة، لا يعمر بها جنان ولا خلد ولا يصرف فيها لسان ولا يد. فغاظني منهم ذلك وأنفت ممّا هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري وتتّبع محاسن أهل بلدي وعصري غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلّة وتصبح بحاره ثمادا مضمحلّة مع كثرة أدبائه ووفور علمائه. وقديما ضيّعوا العلم وأهله ويا ربّ محسن مات إحسانه قبله. ويا ليت شعري من قصّر العلم على بعض الزمان وخصّ أهل المشرق بالإحسان" (ابن بسّام، 1997، ج 1، ص 11-12).

وبذلك اتّضحت ملامح التحوّلات المفروضة على الأخباريّين "الجدد" في الأندلس، وقد مثّلت الوجه الثاني من وجوه الضرورات التي فُرضت عليهم وتحكّمت بشكل أو بآخر في صناعة الخبر الأدبيّ. فالأخباريّ متفاعل ومنفعل بالحالات النفسيّة المتحوّلة باستمرار، ولا سّيما تلك التي تمسّ أمنه الوجدانيّ ووجهه الإيجابيّ. إلى جانب ذلك فإنّ الواقع الموضوعيّ ماثل في ذهن الأخباريّ، وهو واقع سِمَتُه الاضطراب وتفاقم المخاطر، وكان الأخباريّ في أثناء إنتاجه يستحضر طبيعة المتقبّل الذي يتوجّه إليه بذلك الإنتاج وحدود انتظاراته. ولا شكّ في أنّ الأخباريّ يتأثّر حتما بدرجة نضج العلوم والآداب في عصره وما ينتجه غيره من المبدعين، لأنّ في ذلك تحديدا للمسار العامّ للحياة العلميّة والأدبيّة التي تسم عصرا من العصور.

وفي ظلّ الإملاءات القديمة والتحوّلات الجديدة كيف سيكون الأخباريّ في صناعة الخبر الأدبيّ؟ هل هو منشئ للخبر مبدع فنكون إزاء أصمعيّ جديد أم هو مقارن للسياقات المختلفة للخبر الواحد فيظهر أصفهاني آخر أم هو مجرّد ناقل لأخبار الأخباريّين "القدامى" فنجد أنفسنا إزاء ابن عبد ربّه من جديد؟

3. النتائج المترتبة على الإملاءات القديمة والتحولات الجديدة

حملت تلك التحوّلات الخارجيّة والداخليّة أهل الأندلس على اتّخاذ مواقف وتدابير حينيّة ردًّا على هذه التحوّلات، فحرصوا على التخلّي عن الجلباب المشرقيّ وبناء شخصيّة معرفيّة موازيّة للشخصيّة المشرقيّة، وانتابتهم الرغبة في تجاوز عقدة النقص والعمل على الاستقلاليّة وتدعيم الشعور بالأندلسيّة والتعبير عن "الأنا" المتميّزة والمختلفة عن الذات المشرقيّة. وهذا ما نمّى في ذواتهم الإحساس بضرورة أن يكون لهم أدب يمثّلهم ويعبّر عن شخصيتهم. وكان لذلك بالغ الأثر في التّجديد الذي شهده الأدب الأندلسيّ بدءا من القرن الخامس الهجريّ. وفي هذا الإطار يمكن أن نفسّر تواتر كتب التراجم والموسوعات التي أرّخت لأدب الأندلس وعلومها وأخبارها مثل "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسّام، و"الإحاطة في أخبار غرناطة" للسان الدين ابن الخطيب.

وحرص الأخباريّون على تعزيز الثقة بالذات وتطوير آدابهم، فعزم ابن حزم على تأليف كتاب يخلو من أيّ خبر أدبيّ من المشرق قائلا: "والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدك، والاقتصار على ما رأيت أو صح عندي بنقل الثقات، ودعني من

أخبار الأعراب المتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي، ولا أتحلى بحلي مستعار، والله المستغفر والمستعان لا رب غيره" (ابن حزم، 1987، ص 87).

وقدّم ابن عامر الحميري الإشبيلي (ت 440 ه) أعمال أهل الأندلس قائلا: "ولست أودعه إلّا ما أذكره لأهل الأندلس خاصّة في هذا المعنى، إذ أوصافهم لم تتكرّر على الأسماع ولا كثر امتزاجها بالطّباع، فتردّها شيّقة وترودها تيّقة، وإنّما ذلك لتضييع أهل بلدهم لأكثرها وغفلتهم عن جلّها إنكارًا لفضلها مدّة بقاء أهلها. ولأهل المشرق في تأليف أشعار شعرائهم وتدوين أخبار علمائهم الفضل علينا والسبق لنا، حتى لقد يجمعون خشينها مع حسنها ويضيفون لحنها إلى لحنها، لا قلّة ميز بها بل تحرّجا عن تركها. ولو جرى أهل الأندلس على تلك الطّريقة لأوردت على الحقيقة أمثال ما أوردت وأضعاف ما اجتلبت. لكنّ أهل المشرق لا يجدون لأنفسهم من التّشبهات في هذه الموصوفات ما وجدته لأهل بلدي" (ابن عامر، 1940، ص 1-2).

وقد أثمر هذا التوجّه تحوّلا أدبيّا في الأندلس وثيق الصلة بصناعة الخبر الأدبيّ، تجلّى فيما يلي:

-غزارة الإنتاج وتنوّعه وفي مستوى التجديد والسبق حقّ أقرّ أهل المشرق بفضل أهل الأندلس، بل وتأثّروا بهم وأخذوا في تقليدهم بدءا من "رسالة التوابع والزوابع" وصولا إلى الموشّحات والأزجال.

- ظهور مركز ثقل جديد في صناعة الخبر الأدبيّ، ونعني به الغرب الإسلاميّ بمكوّنيه: شمال أفريقيا والأندلس. فقد تتالت المؤلّفات وتزايد عدد الأخباريّين. ولعلّ ما أهّلهم لتصدّر هذه الصناعة هو مشاركتهم للأخباريّين في الشرق الإسلاميّ في الموروث واستئثارهم بالأخبار الأدبيّة في الغرب الإسلاميّ.

وبرغم كلّ ذلك فقد كان لتلك الإملاءات المتنوّعة والتحوّلات المختلفة بالغ الأثر السلبيّ في صناعة الخبر الأدبيّ، فإذا استثنينا ابن حزم الذي أعرض كلّيّا عن أخبار المتقدّمين في كتابه "طوق الحمامة في الألفة والألّاف" وابن ليون التجيبي الذي جدّد الموضوع وساق العديد من أخبار أهل القيروان وتونس والمغرب إلى جانب أخبار أهل الأندلس في كتابه "لمح السحر في رُوح الشعر ورَوح الشحر"، والبونسي الذي أورد العديد من أخبار أهل الأندلس في القرن الخامس الهجريّ لا سيّما أخبار المعتمد ابن عبّاد، في كتابه "كنز الكتّاب ومنتخب الآداب"، فإنه يمكن القول إنّ الكتب المخصّصة للأخبار الأدبيّة أو المشتملة على نصيب وافر منها والمنجزة من القرن الخامس الهجريّ إلى القرن التاسع الهجريّ هي في مجملها "بضاعة قديمة"، اقتصرت فيها صناعة الخبر الأدبيّ على إعادة إنتاج ما قد أنتجه الأخباريّون القدامى قبل القرن الخامس الهجريّ. وقد أقرّ أغلب الأخباريّين "الجدد" بتقصيرهم في الابتكار واقتصارهم على الجمع والتصنيف، وهذه شهادة البونسي تقوم مثالا على ذلك: "وإن لم أكن اخترعت فلعلّي قد انطبعت وأتقنت ما صنّفت وجمعت" (البونسي، 2004، ص 76). وقد ساند معاصره ابن سعيد المغربي في ذلك بقوله: "ولله درّ القائل إنّ المتقدّمين بنوا فارتقوا وإنّ المتأخّرين زيّنوا ونمّقوا. ورأيت في رسالة: وأنّ لكلّ زمان ما يليق به من البيان، وفي أخرى: الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم." (ابن سعيد المغربي، 2020، ص 43).

وبناء على ذلك كان للأخباريّين "الجدد" فضل محدود مثلما كان لابن عبد ربّه والحصري قبل ذلك. فظهرت معادلة جديدة قوامها: لا فرق بين الأخباريّين "القدامى" والأخباريّين "الجدد" إلّا بالصياغة. إذن لا فرق بين الفريقين إلاّ في اختلاف الأسماء وتغيّر عناوين الكتب.

ويمكن القول عند المقارنة بين هذه المرحلة والمرحلة التاريخيّة السابقة المنتهية بانتهاء القرن الرابع الهجريّ إنّنا لا نقف إلاّ على وجهين بارزين من وجوه الاختلاف والتمايز: يتمثّل أوّلهما في محدوديّة الكتب التي تميّزت بالجديد من إنتاج الخبر الأدبيّ حكاية وخطابا، ويظهر ثانيهما في ميل الأخباريّين الجدد إلى التدقيق والتحقيق وتجديد الخطاب، وميلهم في سياقات كثيرة إلى الإبداع والابتكار.

ولعلّ أسوأ النتائج المترتّبة عن الإملاءات القديمة والتحوّلات الجديدة أن تكون حالة الإحباط واليأس التي انتابت الأخباريّين الجدد باعتبارهم حملة لواء الأدب، فالعقل معتقل، اعتقله السابقون بإنتاجهم والمعاصرون بلامبالاتهم، والتاريخ متوتّر مضطرب، لا يندمل جرحه حتى يُصاب بجراح أخرى أكثر إيلاما وأشدّ تأثيرا، والنتيجة هي ذات أخباريّة متأزّمة. لذلك فإنّ الأخباريّين الجدد أقبلوا على ممارسة الخبر الأدبيّ جمعا وتصنيفا لغاية الترفيه عن الذات المهزومة ووعظها، ولم يُقبلوا عليه إبداعا واختراعا لغاية الإضافة العلميّة، يقول ابن عاصم عن كتابه: "فيه تسلية للنفوس وترويح للأرواح واستجلاب للمسرّات والأفراح، وراحة الخاطر وأنس المجالس والمسامر، وتحفة القادم وزاد المسافر" (ابن عاصم، 2014، ص 51).

وقد صوّر البونسي حالة الإحباط هذه بقوله: "على أنّي ما ألّفته إلاّ بذماء نفس تالفة وحال متغيّرة كاسفة وقلب عليل وذهن كليل وصدر بنيران الخطوب مشغول وفكر بحسام النوائب مفلول في زمان دأبه عداوة الأحرار والإساءة لذوي الأخطار. لا ينفكّ عن إحالة الأحوال وأن يمحق بشاشة أهل الوفاء محق الليالي سَماوةَ الهلال. واها له كم رفع من غبيّ ووضع من عليّ وأسعط من أنوف بالرَّغام وأسقط من سادة إسقاط حروف الإدغام: [البسيط]

يَحطّ مَن لَا تَفي الدنيَا بِقيمَتِه جورا ويَرفَعُ أَقوَاما بِلَا قِيَم" (البونسي، 2004، ص 76).

ونخلص ممّا تقدّم إلى أنّ طبيعة التحدّيات التي واجهها الأخباريّون الجدد في الأندلس قد شكّلت اللحظة الإبداعيّة، فورد نصّ الخبر جمّاع قوى تتجاذبه وترسم مواصفات صناعته، وهي ذاتيّة المبدع والواقع المحايث والمتقبّل المفترض وطبيعة العلاقة مع السابق.

النتائج:

يتّضح ممّا تقدّم أنّ الخبر الأدبيّ المصنَّع في الأندلس من بداية القرن الخامس إلى نهاية القرن التاسع الهجريّ قد خضع لإملاءات قادمة من الماضي وتحوّلات ناشئة من الحاضر. ويمكن إجمال تلك النتائج فيما يلي:

- اكتمال تشكّل بنية العقل العربيّ وما تبعها من تسييج للإبداع بسياج المباح والمحظور، واستواء الموروث بعد امتزاجه بالثقافات الوافدة وتدوينه مرجعا مقيسا عليه.

-تطوُّر أدب الأخبار إلى حدود القرن الرابع الهجريّ وشمول موضوعاته، وصرامة ضوابط المؤسّسات العلميّة والنقديّة.

- تأثّر أدب الأخبار بالحالات النفسيّة المتحوّلة التي يعيشها الأخباريّ والواقع التاريخيّ المتقلّب باستمرار.

- استقالة المتقبّل وتراجع سلطة المؤسّسات النقديّة.

- رغم التداعيات السلبيّة لتلك الإملاءات والإكراهات فإنّ الأخباريّين الجدد في الأندلس حاولوا أن يبحثوا لذواتهم عن هويّة معرفيّة، فحرصوا على إنتاج أخبار جديدة مبنى ومعنى، وعملوا على تجديد الأخبار القديمة لا سيما في مستوى الصياغة.

ومن التوصيات المهمّة في هذا السياق الاسترسال في دراسة التحوّلات الطارئة على الخبر الأدبيّ في الأندلس من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريّ، سواء في مستوى الإسناد، خصوصا عبارات الأداء ومراتب التحمّل، أو في مستوى المتن، لاسيما البنية السرديّة وأساليب الخطاب.

المراجع

ابن بسّام، ع. (1981). *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة*. (إحسان عباس، تحقيق). الدار العربية للكتاب.

البونسي، إ. (2004). *كنز الكتّاب ومنتخب الآداب*، (حياة قارة، تحقيق). المجمع الثقافي.

ابن أبي حجلة، أ. (1980). *ديوان الصبابة*. دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر.
ابن حزم، ع. (1987). *طوق الحمامة في الألفة والألاف*. (إحسان عباس، تحقيق). (ط 2). المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
الحصري، إ. (2019). *زهر الآداب وثمر الألباب*. دار الجيل. بيروت.
الحصري، ع. (1980). *اقتراح القريح واجتراح الجريح*. (مصطفى الشكعة، تحقيق). دار الكتاب.
الحموي، ي. (1993). *معجم الأدباء*. (إحسان عباس، تحقيق؛ ط.1). دار الغرب الإسلامي.
الداية، م. (2000). *في الأدب الأندلسي* (ط.1). دار الفكر المعاصر، دار الفكر.
شبيل. ع. (2001). *نظريّة الأجناس الأدبيّة في التراث النثريّ جدليّة الحضور والغياب* (ط1). دار محمّد علي الحاميّ.
الصفدي، ص. (2000). *الوافي بالوفيّات*. دار إحياء التراث.
ابن طباطبا، م. (2005). *عيار الشعر*. (عباس عبد الساتر، شرح وتحقيق). (ط 2). دار الكتب العلمية.
ابن عاصم، م. (2014). *حدائق الأزهار في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر*. مطبعة دار الكتب والوثائق القوميّة.
ابن عامر، إ. (1940). *البديع في وصف الربيع*. مطبوعات معهد العلوم العليا المغربيّة.
القاضي، م. (1998). *الخبر في الأدب العربيّ دراسة في السرديّة العربيّة* (ط.1). كلّيّة الآداب. منوبة. دار الغرب الإسلاميّ.
المغربي، ب. س. (2020). *عنوان المرقصات والمطربات*. (محمد حسين المهداوي وعدنان محمد آل طعمة، تحقيق). دار الفرات للثقافة والإعلام، دار سما للطباعة والنشر والتوزيع.
المقّري، أ. (1995). *نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب*. (إحسان عباس، تحقيق؛ ط.1). دار صادر.
الواد، ح. (1988). *في مناهج الدراسات الأدبيّة*. (ط 4). مطبعة النجاح الجديدة.

References

Abu Talib, A., Al-Sayyid, W., Jad, S., & Al-ʿAzab, A. (2020). *Dawr muʾassasat al-taʿlim al-ʿali fi nashr al-waʿy al-biʾi bayna al-ṭalabah: Jamiʿat Ajman namudhajan* [The role of higher education institutions in promoting environmental awareness among students: Ajman University as a model] [in Arabic]. *University of Sharjah Journal for Humanities and Social Sciences, 18*(1B), 286–325.

Al-ʿAkrami, I., & Al-Shaybani, R. (2025). *Al-taḥlil al-jughrafi li-mustawa al-waʿy al-biʾi lada ṭullab al-jughrafiya fi al-ḥaḍar wa-al-rif* [A geographical analysis of the level of environmental awareness among geography students in urban and rural areas] [in Arabic]. *Abhath Journal, 17*(1), 137–148.

Al-Darwish, T. (2024). *Ahammiyyat al-jughrafiya fi taʿziz al-waʿy al-biʾi wa-al-tafkir al-naqdi: Istratijiyyat bidaghujiyyah wa-mumarasat taʿallumiyyah* [The importance of geography in promoting environmental awareness and critical thinking: Pedagogical strategies and learning practices] [in Arabic]. *Karasat Tarbawiyyah Morocco, 15*, 139–148.

Al-Dirbi, A. A. A. (2023). *Al-muwajahah al-umamiyyah lil-intihakat al-biʾiyyah: Dirasah li-dawr al-Umam al-Muttaḥidah fi ḥimayat al-biʾah* [The international response to environmental violations: A study of the role of the United Nations in environmental protection] [in Arabic]. *Journal of the Faculty of Economics and Political Science, 24*(3), 111–162. https://jpsa.journals.ekb.eg/article_308914.html

Al-Furaih, M. (2021). *Mustawa al-waʿy al-biʾi lada al-ṭalibat fi al-mujtamaʿ al-Suʿudi* [The level of environmental awareness among female students in Saudi society] [in Arabic]. *Journal of Educational and Qualitative Research, 8*, 183–220.

Al-Hajrasi, A., & Al-Mallahi, W. (2023). *Dawr al-jamiʿah fi tanmiyat al-waʿy al-biʾi li-ṭullabiha li-muwajahat tadaʿiyat al-taghayyurat al-manakhiyyah* [The role of the university in developing students' environmental awareness to confront the impacts of climate change] [in Arabic]. *Journal of Education, 3*(116), 1144–1252.

Al-Harbi, A. (2017). *Ittijahat ṭullab wa-ṭalibat al-marḥalah al-thanawiyyah bi-Muḥafazat ʿUqlat al-Ṣuqur naḥwa al-mushkilat al-biʾiyyah* [Attitudes of secondary school students in Uqlat Al-Suqur Governorate toward environmental problems] [in Arabic]. *Journal of Educational and Psychological Sciences, 1*(5), 183–200.

Al-Maʿafa, M. (2020). *Dawr al-jamiʿah fi tanmiyat al-waʿy al-biʾi lada ṭullab Jamiʿat Najran* [The role of the university in developing environmental awareness among Najran University students] [in Arabic]. *Journal of the Association of Arab Universities for Research in Higher Education, 40*(4), 113–136.

Al-Saif, M. (2008). *Usus al-baḥth al-jughrafi* [Fundamentals of geographical research] [in Arabic]. Dar Al-Maʿrifah Al-Jamiʿiyyah.

Al-Zarwali, W. (2021). *Mustawa al-waʿy al-biʾi lada ṭalabat Jamiʿat Umm al-Bawaqi* [The level of environmental awareness among students at Oum El Bouaghi University] [in Arabic]. *Matoun Journal, 17*, 271–286.

Arab Academy. (n.d.). *Al-Muʿjam al-Wasiṭ: Maddat "Biʾah"* [*Al-Muʿjam al-Wasiṭ*: Entry "Environment"] [in Arabic]. Retrieved July 12, 2026, from https://www.arabicacademy.gov.eg/ar/%D9%85%D8%AD%D8%B1%D9%83-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%AD%D8%AB/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%A6%D8%A9

Gueunier; N. (1978). *La production littéraire: métaphore, concept ou champ problématique*. In Littérature. p 3-18.

Jauss, H. R. (1978). *Pour une esthétique de la réception*. Gallimard.

Liman, A. (2022). *Al-tanmiyah al-mustadamah: Madkhal li-mafahim al-istidamah wa-ahdafiha maʿa al-tarkiz ʿala al-hadaf al-rabiʿ* [Sustainable development: An introduction to sustainability concepts and goals with a focus on Goal 4] [in Arabic]. National Library.

Macherey, P. (2014). *Pour une théorie de la production littéraire*. ENS Éditions. Lyon.

Muhammadin, M., & Al-Farraʾ, A. (2020). *Al-madkhal ila ʿilm al-jughrafiya wa-al-biʾah* [Introduction to geography and the environment] [in Arabic] (4th ed.). Dar Al-Mareekh.

National Center for Meteorology. (n.d.). *Al-waʿy al-biʾi* [Environmental awareness] [in Arabic]. Retrieved from https://ncm.gov.sa/Ar/MediaCenter/AwarenessDef/Pages/default.aspx

Sabbabhah, S. (2014). *Mada waʿy al-ṭalabah fi Jamiʿat Haʾil bi-al-taghayyurat al-manakhiyyah wa-al-ʿawamil al-muʾaththirah fi dhalik* [The extent of students' awareness at the University of Hail of climate change and the factors affecting it] [in Arabic]. *Arab Gulf Message Journal, 133*, 49–74.